النصوص الرقميّة تُسائل التفكيكيّة

غسان مراد

انطلاقًا من المواضيع المُتنوّعة (في هذا العدد وفي الأعداد السابقة) التي ترتبط بمجملها بوسائل التعبير، لا بد لنا أن نرى ما هي نظرة التفكيكيّة لهذه الوسائل التعبيريّة التي تسمّى حسب "جاك دريدا" (Jacques Derrida) "كتابة"، ثم ما هي رؤيته للتكنولوجيا بشكلٍ عام، بما يشمل مفهوم "الرقمنة" الذي لم يكن شائعًا في حياته؟

والتفكيكيّة تعريفًا لا تعني الهدم والتخريب، بل بناء من نوعٍ آخر يتجاوز المعايير الهيكليّة والمركزيّة والمسلّمات السائدة في النصوص، خاصّة الفلسفيّة منها.

بالنسبة إلى "دريدا"، علينا أن نفكّر وننتقل إلى وضعٍ جديد للكتابة، وفي الوقت نفسه، إلى وضعٍ جديد للّغة، وبالتالي للمعنى. "إنّ التأكيد على أنّ مفهوم الكتابة يتجاوز ويشمل مفهوم اللّغة، فإنّ هذا يفترض بالطبع تعريفًا معيّنًا للّغة والكتابة. يعتبر "دريدا" أنّ الكتابة ليس لها جوهر، بمعنى شيء يسبقها ويرصد بها تدوينها. وهو يسعى تحديدًا إلى تحرير الكتابة من كلّ رقابة، ومن كلّ اعتماد على الشعارات والمفاهيم المرتبطة بها. ونتيجةً لذلك، يتخلّى عن فكرة اختزال الكتابة إلى كتابات بسيطة بأيّ وسيلة.

تجدر الإشارة إلى أنّ "دريدا" يتحدّث عن الكتابة بشكلٍ معمّم، وبعبارةٍ أخرى يتجاوز بكثير أشكال معيّنة من الكتابة. فالكتابة من حيث المعنى، تشير إلى كل ما يمكن أن يؤدّي إلى نقشٍ وتفسير. بالنسبة إليه، يجب علينا أن نفهم الكتابة كنظام تدوين مرتبط بكل نشاطٍ بشريّ، ما يوحي بأنّ كل شيء هو كتابة، وأنّ أيّ تعبير عن المعنى سيأتي بعد ذلك من تعميم الكتابة.

عندما نتطلّع إلى الكتابات التشعّبيّة الحاليّة نرى أنّ النصوص بطبيعتها متشظّية ومفكّكة، هذا التفكّك "الفيزيائي" هو أيضًا تفكّكًا في المعنى الذي يُبنى بحسب وجهة نظر كلّ قارئ، ما يطرح علينا تساؤلات حول كيفيّة بناء إستراتيجيّات وطرق تفكير حول التقنيّات كي نجد وسائل قياس وتقييم لجميع نتائجها المضبوطة والمنحرفة، بالإضافة إلى كل تطوّراتها الفعليّة من دون أي تبنّي للرفض البسيط و/أو الحظر أو الموافقة عليها إلّا بعد مساءلتها معرفيًا وإبستمولوجيًا.

فالتقنيّات تؤثّر في الإنسانيّة وتوجّهاتها، وبالتالي في المعرفة والعلاقة بالآخرين، وبالسياسة، وبكل ما له ارتباط بالإنسان وبإنسانيّته. فهل يمكن للتفكيكيّة أن تقدّم، ليس فقط وصفًا لهذه الظاهرة، بل أيضًا، وقبل كل شيء، عملًا قادرًا على اختراع أشكال جديدة من المواقف النقديّة، وحتى طرائق المشاركة، في مواجهة

الأفعال التي يمكن ملاحظتها اليوم في مختلف الاستخدامات غير المنضبطة للوسائل التقنيّة؟ على سبيل المثال، مراقبة الناس وجمع المعلومات الخاصّة، وطرح رؤية أحاديّة ولغويّة، وسيطرة الروبوتات والذكاء الإصطناعيّ، كما كل ما سمّاه "دريدا" "الإتصالات" و"التكنولوجيا من بعد" التي يتم من خلالها طرح التساؤلات حول الإنترنت، تقنيّات الأرشفة، المعلومات الإعلاميّة، السينما، التصوير الفوتوغرافيّ، الكتابة، والصور، إلخ. إذًا، تحاول التفكيكيّة تفكيك كل شيء انطلاقًا من البنى اللّغويّة، وتفكيك كل ما هو مركزيّ اجتماعيًا، سياسيًا وثقافيًا.

انطلاقًا من ذلك، يجيب "جاك دريدا" أنّ التفكيك في النصوص هو مفهوم أساسيّ في فلسفته، يتعلّق بعدة نقاط أهمّها: أوّلًا، طرح تساؤلات حول البنية النصيّة التشعّبيّة، وهذا ما يتطابق مع تساؤلاته حول البنية الهرميّة التي يتمثّل التفكيك فيها في ملاحظة الهرميّات والتناقضات الموجودة في النصوص، انطلاقًا من أنّه بات علينا التشكيك في المفاهيم التقليديّة للحضور والغياب، الصّواب والخطأ، الداخل والخارج، إلخ. وهذا يبيّن كيف أنّ هذه التناقضات مترابطة وتفكّك بعضها بعضًا. ثانيًا، إنّ كثرة النصوص وهذا الكمّ الهائل من الانفتاح النصيّ وتعدّديّة الاستخدامات الفردانيّة، تتوافق مع ما يؤكّده "دريدا"، وما تؤكّده اللّسانيّات النصيّة بأنّ الكلمات لها معانٍ متعدّدة قيد التغيير المستمرّ. وبالتالي، لا يمكن تحجيم النص إلى تفسيرٍ ثابت. يستكشف التفكيك هذه المعاني المتعدّدة ويفتح لها آفاقًا جديدة. وإذا اعتبرنا كما هو الحال في الفضاء الرقميّ، أن أيّ ولوج إلى الإنترنت يترك أثرًا، فهذا أيضًا يتوافق مع ما قدّمه "دريدا" لمفهوم الـ "أثر" (trace) الذي يمثّل المخفيّ في كل علامة لغويّة، مع العِلم أنّه لا يوجد معنى للأثر دون الحضور. تقنيًا، هذا الأثر الرقميّ ليس أثرًا مماثلًا بل عبارة عن تمثيل صوري للأصل نستدعيه في كل مرّة نحتاجه. كما اجترح "دريدا" مفهوم "التأجيل" والاختلاف بمفردة (differance) باستخدام حرف الa، لعبة بين كلمتين باللغة الفرنسيّة (différer) التأجيل أو التأخير وبين "الاختلاف" (différence)، ويُظهر أنّ معنى كل كلمة يعتمد على اختلافها عن الكلمات الأخرى. بالتالي، يسلّط التفكيك الضوء على هذه الآثار والاختلافات.

وإذا اعتبرنا كما هو الحال المعتمد، أنّ الإنترنت هي فضاء غير مركزيّ، والكل باستطاعته أن ينشر (دون التطرّق الى مركزيّة الخوادم في بعض الدول)، يشكّك "دريدا" في مفهوم فاعل، ثابت ومركزيّ في اللّغة. ويُظهر كيف أنّ اللّغة نفسها تحوّل الفاعل، حيث تشير كل كلمة إلى كلمات أخرى ومعانٍ أخرى. وهنا يظهر عدم استقرار الفاعل.

استطرادًا، هذه الرؤية لـ"دريدا" الذي تناول فيها مفهوم التكنولوجيا الرقميّة من زوايا مختلفة، فالعالم الرقمي بالنسبة إليه لا يقتصر على التكنولوجيا، بل يشمل أيضًا جوانب أعمق من التجربة الإنسانيّة، مثل اللّمس

والتواصل. كما أنه يستكشف التعدّديّة الكامنة في التكنولوجيا الرقميّة، إذ تسمح التقنيّات الرقميّة بإعادة إنتاج النصوص وتعديلها وتداولها بسرعة، مما يدعو إلى التشكيك في مفهوم التفرّد والأصالة.

وباختصار، يعدّ التفكيك في النصوص وفقًا لـ"دريدا" عملية معقّدة تهدف إلى كشف الغموض والتناقضات والمعاني المتعدّدة الموجودة في اللّغة المكتوبة. ويعتبر أيضًا أنّ الرقميّ هو الفضاء الذي يتم فيه التشكيك في المفاهيم التقليديّة، حيث يؤدي التفكيك والتعددية دورًا مركزيًا.

انطلاقًا مما سبق، تتداخل في هذا العدد مواضيع متعددة تبدأ بـ "واقع نقد السرد التفاعليّ العربيّ ومحاولات التنظير" وطرح السؤال عن إمكانيّة إيجاد نظريّة مستحدثة لنقد الأدب الرقميّ. ويهدف الموضوع الثاني إلى دراسة قرارات الأمم المتحدة، وعلى وجه الخصوص، قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بشأن لبنان S/RES/٢٦٥٠ (٢٠٢٢) فيما يتعلّق بالسمات اللّغويّة والمستويات اللّغويّة المحدّدة. ويأتي الموضوع الثالث ليستكشف تصوير أخلاقيّات العمل السويديّة في الستينيات وما يُعرف بالخطيئة السويديّة أو التخلّي كما يُنظر إليها من خلال الشخصيات في "الحب والاغتراب" (٢٠٢٠) و"الأجانب" (١٩٧٠). ويتعلّق الموضوع الرابع بدراسة الكفاءة الذاتيّة للمعلّمين اللّبنانيّين خلال الأزمة اللبنانيّة: حالة المؤسّسات المعتمدة، والتي اختير فيها استكشاف دوافع المعلّمين خلال تلك الفترة، وبالتحديد درجة كفاءتهم الذاتيّة الفرديّة. أما النص الخامس فهو عبارة عن دراسة لمعبد "المسلات" في جبيل الذي يحتوي على ثمانية حُفر مليئة بالمتاع الأثري والأغراض المتنوّعة أهمّها التماثيل المعدنيّة ذو الشكل الإنسانيّ، الأسلحة، المجوهرات وتماثيل الفَييانزي. أخيرًا، ضمن محور قراءة في كتاب لهذا العدد كانت حول كتاب "المرايا المحدبة – من البنيويّة إلى التّفكيك" للباحث والنّاقد المصري عبد العزيز حمّودة (١٩٣٧ – ٢٠٠٦) الذي يناقش فيه الكاتب قضيّة الحداثة وما بعد الحداثة وتأثيرها في المحيط الثّقافي العربيّ، وخصّ بالدّراسة مشروعين نقديّين يمثّلان، في نظره، النّموذجين الأكثر بروزًا للحداثة وهما "البنيويّة والتّفكيكيّة".